مهمة الإنسان ورسالته في هذا الكون

من مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة[1]

● الخطبة الأولى:

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ومن يجعل الله له نوراً فما له من نور. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، خصنا بخير كتاب أنزل، وأكرمنا بخير نبي أرسل، وأتم علينا النعمة بأعظم دين شرع: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أدى الأمانة، وبلغ الرسالة ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلاّ هالك، فمن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً.

اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبي الكريم، وعلى آله وصحابته، وأحينا اللهم على سنته، وأمتنا على ملته، واحشرنا في زمرته، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

أمّا بعد... فيا أيها الإخوة المسلمون:

لكل شيء في الوجود مهمة ورسالة ينبغي أن يؤديها... للجماد رسالة،

---

(١) تولى الأستاذ القرضاوي مهمة خطبة الجمعة بمسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالدوحة منذ إنشائه، ما لم يكن مسافراً، كما يقوم تلفزيون قطر ببث الخطبة على الهواء، فيسمعها المسلمون في قطر والبحرين والإمارات والمنطقة الشرقية من السعودية وغيرها.

وللنبات رسالة، وللحيوان رسالة، وللإنسان رسالة.

ورسالة الإنسان: أن يعبد الله عز وجل[1] ويعرفه حق المعرفة، كما يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧] ، ويقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢] ، أي: أن الله خلق العالم العلوي بسماواته، وخلق العالم السفلي بأراضيه، لحكمة وغاية، هي أن يعرف الناس ربهم.

الإنسان هو المقصود من خلق السموات والأرض، هذا الإنسان على صغر حجمه، وعلى ضآلة جسمه، وعلى قصر عمره، الإنسان بالنسبة للكون شيء صغير، نحن نعيش في جزء من قارة، والقارة جزء من هذه الكرة المعلقة، التي نسميها الأرض، والأرض جزء صغير صغير من المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية جزء صغير صغير من المجرة التي نعيش فيها والتي يطلقون عليها: سكة التبانة، لأن النجوم تتناثر فيها، كما يتناثر التبن في سكة من يحملون التبن، لا عدد لها ولا حصر لها، بالملايين، وأي نجم فيها أضعاف هذه الأرض بمئات وآلاف المرات وربما بالملايين.

هذه إحدى المجرات التي في هذا الكون، والتي مجموعتنا الشمسية جزء منها، وهذه المجرة إحدى ملايين المجرات التي يقوم عليها هذا الكون.

الكون كون كبير فسيح جداً، لا يعلم حدوده إلاّ الله، وهو يمتد ويتسع كما يقول العلم الآن، وكما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧] .

كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول إذا أعتدل من ركوعه: «اللهم ربنا

---

(١) انظر فصل (العبادة مهمة الإنسان الأولى في الوجود) من كتاب (العبادة في الإسلام) للأستاذ القرضاوي.

لك الحمد ملء السموات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد»[1] أي: بعد السموات والأرض، ولهذا يسأل بعض الناس عن قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد: ٢١]، وفي الآية الأخرى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣]، إذا كان عرضها عرض السموات والأرض، فماذا يكون طولها؟! والعرض دائماً أقل من الطول، إنها شيء لا يعلمه إلاّ الله.

إذن هناك عالم فوق السموات والأرض، والسموات حتى الآن لا نعلم حقيقتها ما هي؟ ما هي السموات؟ إن الله تعالى ذكر لنا: أن السماء الدنيا زينها بمصابيح... زينها بالكواكب وبالنجوم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦﴾ [الصافات: ٦] أي: النجوم، ومعنى هذا: أن كل ما نراه ونعرفه من النجوم هو في السماء الدنيا التي نراها، والتي يصل إلينا شعاعها بعد دقائق أو بعد سنين، أو بعد ملايين السنين، بل يزعم العلماء اليوم: أن بعض النجوم لم يصل إلينا شعاعها بعد، رغم ملايين السنين فيما يقولون. نحن لا نعرف إلاّ هذه السماء الدنيا، فماذا يكون وراءها؟! وأين سائر السموات السبع؟.

إذن الإنسان من حيث هذا الكون، من حيث حجمه، مخلوق ضئيل، ومن حيث الزمان مخلوق ضئيل، كم يعيش الإنسان؟ جاء في الحديث: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين»[2]، وهب أنه بلغ المائة، أو جاوز المائة إلى مائة

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ورواه أبو داود، والنسائي، وتتمته: «... أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجدّ» (الأذكار للنووي بتحقيق محيي الدين مستو، حديث ١١٥).

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة، ورواه أبو يعلى عن أنس، وحسنه السيوطي في (الجامع الصغير)، وتتمة الحديث: «وأقلهم من يجوز ذلك».

وخمسين، أو مائتين، أو عمر ما عمرّ نوح، ولم نعرف في التاريخ أحداً عمرّ ما عمرّ نوح، الذي لبث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، حتى أخذهم الطوفان وهم ظالمون، ولا ندري كم عاش قبل البعثة، الغالب أنها أربعون سنة، ولا كم عاش بعد الطوفان، على كل حال عمرّ أكثر من ألف سنة، ولكن ما النتيجة؟ النتيجة هي: الموت.

وإذا كان آخر العمر موتاً فسواء قصيره والطويل

عند الموت يتلاشى هذا كله، ويصبح العمر كأنه لحظات، ويخيل للإنسان أنه لو عاش برهة ولو قصرت، يعوض فيها ما فات، ويتدارك ما فرط فيه، وهيهات هيهات: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]

الإنسان من حيث عمره شيء ضئيل ضئيل جداً، بالنسبة للأزل من قبله، وللأبد من بعده، ما قيمة هذا الإنسان إذن؟ ما قيمته؟ ليس له قيمة كبيرة من ناحية المكان، ولا من ناحية الزمان، ومن ناحية هذا الجسم لا قيمة له، هو جزء من التراب، لو حللته لوجدته مجموعة من المعادن والعناصر، بعضها من الحديد، وبعضها من الفوسفور، وبعضها من كذا، وبعضها من كذا، تشتري ببضع ريالات، وتتحلل كلها بعد الموت، وتستحيل إلى تراب.

ليس للإنسان قيمة إذن من هذه الناحية المادية.

قيمة الإنسان في هذا الشيء الذي أودعه الله تعالى فيه، ليست في التراب، ولا في الطين، ولا في الصلصال، ولا في الحمأ المسنون، إنما في هذا السر، في هذه اللطيفة الربانية، في هذه الجوهرة الروحانية، في هذا الشيء الذي نفخه الله فيه، والذي استوجب به أن تسجد له الملائكة تحية وتكريماً، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾[1] فَإِذَا

(١) وفي آية أخرى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجر: ٢٨].

سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢] لماذا يسجدون؟ تكريماً لهذا النفحة من روح الله.

هذا هو الذي جعل للإنسان مكانة أي مكانة، وإلاّ لو كان الأمر يدور حول الطين والحمأ المسنون، ما ساوى الإنسان شيئاً.

بهذه النفخة الروحانية كان الإنسان إنساناً، استحق أن يكون خليفة الله في الأرض، وأن تشرئب أعناق الملائكة لتتبوأ منصبه ومنزلته: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

يبدو أنهم استنتجوا ذلك من طبيعة الطين والحمأ المسنون التي رأوها في أول الأمر، ولم يدركوا السر الآخر ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] فقالوا: إن مثل هذا المخلوق الطيني، لا بد أن يغلب عليه الطين، وينزع إلى الأرض، ويخلد إلى التراب ويقع منه الفساد وسفك الدماء: ﴿.. وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ..﴾ [البقرة: ٣٠] فكان الجواب الإلهي، أن قال الله لهم: ﴿.. إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] وعقد امتحاناً لآدم وللملائكة، ظهر فيه فضل هذا المخلوق، والسر كله يرجع إلى: ﴿.. وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى..﴾ [الحجر: ٢٩].

هذا هو الإنسان، حقيقة الإنسان ليس هذا الغلاف، ليس هذا الجسم المكون من الأجهزة والخلايا والدم واللحم والعظام والأعصاب، لو كان الأمر أمر جسم، لكان الثور أعظم من الإنسان، لكان الفيل أعظم من الإنسان، فما أضخمه، وما أعظم من جسمانه! ولكن سر الإنسان في هذا (الروح الإلهي) الذي يسري بين جنبيه! هذا هو أنت أيها الإنسان، بهذا صرت عظيماً في ملكوت السماء؟ ينسبون إلى الإمام عليّ رضي الله عنه قوله:

دواؤك فيك وما تشعر ... ودؤك منك وما تبصر!
وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر!

العالم الأكبر في هذا الإنسان، هذا المخلوق العجيب، ومن هنا كانت قيمة الإنسان.

ومن هنا سخر الله له ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، الكون كله في خدمة الإنسان، مسخر لمنفعته، الشمس تضيء له، والنجوم تهديه، والبحار والأنهار، وكل ما في هذا الكون لخدمته، وجعل الله له في الأرض ذلولاً ليمشي في مناكبها ويأكل من رزقه، سخر له البحر ليأكل منه لحماً طرياً، وليجري الفلك فيه مواخر وليبتغي من فضله، ولعله يشكر الله عزوجل[1]، سخر له المخلوقات العظيمة فوقه وتحته، لتكون في خدمته، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم ٣٢] .

انظروا إلى كلمة (لكم) وتكريرها في هذه الآيات خمس مرات، الكون كله مسخر لمصلحة هذا الإنسان، ولخدمة هذا الإنسان.

ولكن الإنسان نفسه لمن سخر؟ ومن يخدم؟ إنه قد أعدّ لخدمة الرحمن، كل ما في الكون خلق للإنسان، أما الإنسان نفسه فخلق للرحمن!.

إذا نظرت إلى مراتب الكائنات في هذا الكون، وجدت كل كائن يخدم ما هو أعلى منه مرتبة، الجماد يخدم النبات، والنبات مع الجماد يخدم الحيوان، والحيوان مع النبات والجماد يخدم للإنسان.

الأرض تخرج النبات، والماء والمطر والشمس وهذه المخلوقات تعمل لإحياء النبات، وإمداده بالغذاء، حتى ينمو ويترعرع، ويزهر ويثمر، وهذا النبات يأتي الحيوان فيأكله: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات: ٣٣] .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل: ١٤] .

الحيوان الذي خدمه النبات يخدم الإنسان وهو مسخر للإنسان، هذه الأنعام تخدمك وهي صحيحه، وتأكلها وهي ذبيحة.

أما الإنسان ذاته فمن يخدم؟ من ذا الذي يخدمه الإنسان؟ ليس هناك من هو أعلى من الإنسان من المخلوقات، إنما يخدم الإنسان الله عز وجل.

ولهذا كانت الوثنية عكساً للحقائق، وقلباً للأمور، حينما جعلت الإنسان يذل ويخضع لما هو أدنى منه، يعبد الطبيعة، يعبد الأبقار، يعبد الأنهار، يعبد الأشجار، يعبد الكلاب، يعبد الشمس أو القمر، يعبد الجمادات أو النباتات، أو الحيوانات أو الأفلاك، وكلها دون الإنسان، وكلها في خدمة الإنسان.

الإنسان خلق لله، ليعرفه ويعبده: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] ـ مثلهن: في العدد، أو مثلهن: في التكوير، أو مثلهن في روعة الخلق وإبداعه ـ ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] ، لتعرفوا الله عز وجل بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، أنه القادر على كل شيء، والعالم المحيط بكل شيء.

ليس معنى معرفة الله أن نعرف حقيقة ذاته، لا، هذا أمر تنقطع دونه الأعناق، إننا لم نعرف حقيقة أنفسنا، فكيف نعرف حقيقة خالقنا؟! إن بعض (البسائط) في هذا الكون عجزنا عن إدراك كنهها، إن الإنسان رغم تقدمه العلمي الهائل حتى أنه غزا الفضاء، ويحاول أن يصل إلى كواكب بعيدة، عجز عن معرفة حقيقة نفسه، حتى ألف رجل من أقطاب العلم كتاباً شهيراً سماه: (الإنسان ذلك المجهول)[1]، ألفه الدكتور (الكسيس كاريل) الحائز على (جائزة

---

(١) وقد اقتبس منه الشهيد سيد قطب ـ عليه رحمة الله ـ مقتطفات ضمنها كتابه (الإسلام ومشكلات الحضارة) فصل: الإنسان ذلك المجهول، أراد بذلك أن يؤكد نظرية الإسلام في شأن الإنسان، والتي تقرر تسليطه على عالم المادة، وتسخيره له، وإتيانه القدرة على معرفة النواميس الكونية اللازمة له في الخلافة، وفي الوقت ذاته تقرر جهله المطبق بالإنسان، وإعفاءه تبعاً لهذا من وضع منهج حياته الذاتية بنفسه، وعون الله له بوضع المنهج الملائم لكيانه وفطرته ووظيفته في الأرض، ثم إلزامه باتباع منهج الله هذا.

نوبل) في العلوم[1]، يقول: إننا عرفنا الكثير عن الجمادات، وعن الأشياء من حولنا، ولكننا نجهل الكثير عن أنفسنا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]. لم نعرف إلاّ القليل، ولهذا إذا قلنا: خلق الله الكون لنعرفه سبحانه، فليس معنى أن نعرف كنه ذاته، لا.

نحن نتفكر في خلق الله... في آلاء الله، ولكنا لا نتفكر في ذات الله، فهذا باب مغلق، نحن نؤمن بالغيب، ولا نبدد طاقتنا العقلية فيما لا سبيل للوصول إليه، أولى بنا أن نبحث في الكون، ونكتشف قوانينه، ونعرف سننه، ونسخره ـ كما أراد الله ـ لخدمتنا، بدل أن نضيع أنفسنا فيما لا طائل تحته.

لقد انحرف بعض المسلمين في بعض العصور، وبحثوا في أمور إلهية لا معنى لها: الذات والصفات وعلاقة الذات بالصفات، وقامت معارك كلامية وجدلية، كان معظمها منتحلاً ولا معنى له، وكان أكثرها من تأثير الفلسفات والنحل والملل الأخرى، ولو وقفوا عند القرآن ما جرهم إلى هذا، لو عرفوا أن عليهم أن يقفوا عند هذا الباب، ويقولوا ما قال الراسخون في العلم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] لكان هذا أولى وأجدر وأبعد عن هَذَهَ المتاهات التي دخلوا فيها، دون أن يظفروا منها بثمرة، حتى قال قائلهم:

العلم للرحمن جل جلاله ... وسواه في جهلانه يتغمغم

ما للتراب وللعلوم؟ وإنما ... يسعى ليعلم أنه لا يعلم!

خلقنا الله تعالى لنعرفه، وإنما نعرفه بآثاره في الأنفس والآفاق: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١]، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ

---

(١) عام ١٩١٢م.

بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣] العلم اليوم يساعدنا على بيان آثار الله تعالى في هذا الكون، وكيف نظم التنظيم الدقيق، وأحكم الإحكام البالغ، الذي يدل على عظمة الصانع، وعلى حكمة المدبر، فلا تستطيع إلاّ أن تقول: سبحان الذي أحسن كل شيء خلقه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ. . .﴾ [النمل: ٨٨] هذا ما يلحظه كل من ينظر في هذا الكون، وما أحسن ما قال أبو العتاهية قديماً:

ألا إننا كلنا بائد ... وأي بني آدم خالد؟
وبدءهم كان من ربهم ... وكل إلى ربه عائد
فيا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد؟
ولله في كل تحريكة ... وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد!

إنه الله، تراه في كل شيء، تراه بعين قلبك، بعين عقلك، ولا بعين بصرك، فأبصارنا أكلّ وأقل من أن تراه في هذه الدنيا، وإنما تراه هناك في الآخرة، حيث الكافرون عن ربهم محجوبون، وحيث المؤمنون على الأرائك ينظرون، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] ، ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥] . [أي المشركين].

خلقنا الله تعالى لنعرفه، فإذا عرفناه عبدناه حق العبادة، عرفنا أنفسنا فعرفنا ربنا، عرفنا مخلوقات الله فعرفنا خالقها، فأدينا له حقه، عبّدنا له أنفسنا، لم نعبّدها لأحد غيره، ولا لشيء غيره، فما يستحق شيء في الأرض ولا في السماء، أن نحنى له ظهورنا راكعين، أو نعفر له جباهنا ساجدين، لا ركوع إلاّ لله، ولا سجود إلاّ لله، ولا ذل إلاّ لله، ولا خضوع إلاّ لله، ولا رجاء إلاّ في الله، ولا خوف إلاّ من الله، هذه هي العبودية، أن نعبد الله: ﴿. . . إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. . .﴾[1] [الذاريات: ٥٦]

(١) يشير إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

لنمتثل أوامره ونجتنب نواهيه، ونقيم دينه في الأرض، فهذه هي العبادة بمعناها الشامل.

خلقنا الله تعالى لنعبده حق عبادته، لنتضرع إليه، لنسأله وندعوه، ولنصلي نه، لنحسن إلى خلقه، ونرحم الضعفاء من عباده، لنبذل المال والأنفس من أجله، هذه هي العبادة، وقد روى في بعض الأحاديث الإلهية: «عبادي إني ما خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة، ولا لأستكثر بكم من قلة، ولا لأستعين بكم من وحدة على أمر عجزت عنه، ولا لجلب منفعة، ولا لدفع مضرة، وإنما خلقتكم لتعبدوني طويلاً، وتذكروني كثيراً، وتسبحوني بكرة وأصيلاً»، لهذا خلقنا الله عز وجل، خلقنا لهذه المهمة، لنعبد الله بكل ما تتسع له كلمة (العبادة)، وهي تشمل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، فإقامة الشعائر عبادة، وبر الوالدين عبادة، وصلة الأرحام، وإكرام الجيران، وأداء الواجبات، وفعل الخير، والدعوة إليه، والجهاد في سبيل الله، كلها عبادة.

ومن هذه العبادة أيضاً عمارة الأرض: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...﴾ [هود: ٦١] ومن هذه العبادة القيام بحق الخلافة: ﴿...إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿...وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وهذه هي مهمة الإنسان في هذه الحياة، وفي هذا الكون: أن يقوم بحقوق العبادة والخلافة والعمارة.

ولذلك إذا لم يقم الإنسان بهذه المهمة، كان أضل من الأنعام سبيلاً، الله تعالى يقول: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣ ـ ٤٤]، وفي آية أخرى يقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]. هذا هو وصف حطب جهنم ووقود النار من أولئك الذين عطلوا تلك الأجهزة التي منحها الله إياهم، ليطلوا بها على الكون، لتكون نوافذ للمعرفة، ولكنهم خربوا

هذه الآلات والأجهزة، فكان لهم قلوب ولكنهم لا يفقهون بها، وأعين ولكنهم لا يبصرون بها، وآذان ولكنهم لا يسمعون بها؛ لأنه إذا لم يفقه بقلبه مهمته التي خلق لها، ولم يعرف الخالق الذي أوجده، فإن قلبه لم يعد قلباً، أصبح لا معنى له، وكذلك إذا لم ير آثار الله في الكون، ولم يعتبر بها فهو أعمى وإن كان نظره ستة على ستة: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] ، وإذا كان لا يسمع قوارع المواعظ، ولا يسمع صوت الحق، فهو أصم، كما قال الله تعالى في صنف من الناس: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٨] ، خربوا الآلات والأجهزة الإلهية، فانتهوا إلى أنهم أصبحوا كالأنعام بل هم أضل.

الإنسان يمكن أن يرتقي فيكون كالملائكة أو أفضل، وربما يكون أفضل من الملائكة؛ لأن الملائكة لم تؤت ما أوتي من الغرائز والشهوات، ولم يسلط عليها ما سلط على الإنسان من قواطع الطريق من الداخل ومن الخارج، فإذا تغلب الإنسان على هذه العوائق والقواطع وارتقى أصبح أفضل من الملائكة، وأصبح خير البرية على الإطلاق كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البينة: ٧] .

وكما أن في الإنسان استعداداً ليرتقي ويُرتقى، عنده استعداد لأن ينحدر وينحدر، ويهبط ويهبط، حتى يكون كالحيوان الأعجم، بل أضل من الحيوان سبيلاً: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] لماذا كانوا أضل؛ لأن الأنعام لم تأت ما أوتي الإنسان، لم تؤت العقل الذي يفكر، ولا الإرادة التي تحرك أو ترجح، ولم تؤت هذه المواهب الروحية والعقلية التي أُودِعها الإنسان، الحيوان ليس فيه سر: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩، ص: ٧٢] فالحيوان معذور.

ومن ناحية أخرى فإن الأنعام تؤدي مهمتها... تقوم بدورها المطلوب

---

(١) البقرة: ١٨، وفي آية أخرى: ﴿صُمٌۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

منها في الحياة، هل رأيت بقرة تمردت على أن تحلب؟ أو بعيراً امتنع أن يركب؟ إنها تقوم بوظيفتها في الحرث والسقي، وحمل الأثقال إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بشق الأنفس، تركبونها وزينة ولكن الإنسان إذا لم يعرف الله، ولم يقم بعبادته وخلافته في الأرض، فإنه لم يؤد مهمته... لم يؤد رسالته، ولذلك كان أضل من الأنعام سبيلاً.

ومن هنا ماذا تقول في هؤلاء الناس الذين يعيشون ويموتون ولم يعرفوا الله؟! أولئك الملاحدة الذين ينكرون وجود الله عز وجل، ما هم هؤلاء؟ هؤلاء كفار، ما قيمة هؤلاء؟ هذا التراب الذي يأكل من التراب، ويمشي على التراب، وينتهي إلى التراب، هذا الطين المتعالي المتعجرف، ما قيمته وما منزلته حتى يجحد وجود الله؟.

وكذلك أولئك الذيم يؤمنون بوجود الله، ولكنهم لا يقومون بحقه، حتى من بين أبناء المسلمين، هذا الذين يتسمى بمحمد وأحمد وعبد الله وعبد الرحمن، بما حمدّ وعبد من الأسماء، بأسماء الأنبياء وأسماء الصحابة، هؤلاء الذين يعيشون بين ظهراني المسلمين، ولا تراهم لله راكعين ولا ساجدين، الذين يعبّون من الشهوات، الذين يركضون وراء اللذات، الذين: ﴿... أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[1] [مريم: ٥٩] ، ما رسالة هؤلاء؟ ما رسالتك أيها الإنسان؟ أخلقت لمجرد أن تأكل وتشرب؟! هكذا تصنع الأنعام، ماذا زدت على البقرة في بيتك أو الناقة أو الجمل أو الحمار؟ ما قيمتك أيها الإنسان إذا لم تكن لك مهمة أعظم وأرقى؟ ما قيمتك إذا لم تعرف الله ولم تعبد الله؟.

إن معرفة الله تعالى وعبادته هي الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، فعلى الإنسان أن يعرف غايته، أما إذا عاش لا يعرف لماذا يعيش؟ وما هي غايته؟ وما هي رسالته؟ فما هو بإنسان!.

---

(١) وأولها: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ...﴾.

بعض الناس يعيشون موجوداً كمفقود، حياً كميت، حاضراً كغائب، هذا ليس بإنسان، لا يحسب من الأحياء، ولا يحسب من بني آدم.

وآخرون حددوا غايتهم في المتع... في الشهوات، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم، وفي أمثالهم من الكفرة الفجرة: ﴿... وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

هناك أناس يعيشون بلا إحساس كما تعيش الجمادات، وأناس يعيشون بغرائزهم ولغرائزهم كما تعيش الأنعام، تجري وراء الشهوات، وأناس يعيشون كما تعيش الشياطين، مهمتها الكيد والإيذاء لخلق الله، والإفساد في الأرض.

أما الإنسان... الإنسان الحق، أعني الإنسان المؤمن، فليس هناك إنسان إلاّ المؤمن، ما عدا المؤمن فليس بإنسان، وإن حسب من الناس، وإن سجلته التعدادات والإحصاءات فيما يسجل من أعداد الناس، المسألة ليست بالكم... ليست بالعدد، الإنسان الحقيقي هو الإنسان المؤمن، الذي يعرف الله تعالى، ويقوم بحقه، ويعبده في أرضه، ويقيم أمر دينه، هذا هو الإنسان، وهو الذي جاء الإسلام ليصنعه... ليربيه... ليكونه، يكون شخصيته المتكاملة، وهو الذي رباه النبي ﷺ في دار الأرقم بمكة، وفي مسجده بالمدينة، ليكون صالحاً في نفسه، مصلحاً لغيره، من ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ٣].

هذا الإنسان هو الذي انطلق بالقرآن، وانطلق بالإسلام، إلى أقاصي الدنيا شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، وأقام فيها حضارة العلم والإيمان، ودولة العدل والإحسان، هذا هو الإنسان... إنسان الإسلام.

فيا أيها المسلم... يا أيها الإنسان: اعرف غايتك، واعرف رسالتك، وجند نفسك لها، وعش لهذه الغاية، عسى الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لنكون أناسي حقاً، نعرف حقنا، ونعرف واجبنا، ونعرف مهمتنا في أرض الله، اللهم وفقنا لما تحب وترضى، اللهم آمين.

أقول قولي هذا واستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● الخطبة الثانية:

الحمد لله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر: ٣]، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، يسبح لَه ما في السموات وما في الأرض، له الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، البشير النذير، والسراج المنير، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه الذين: ﴿ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ورضي الله عمن دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلاّ استجاب له، ولعلها تكون هذه الساعة[1].

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي

---

(١) يشير الشيخ إلى حديث أبي هريرة المتفق عليه. أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «فيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئاً إلاّ أعطاه إياه» وأشار بيده يقللها. والمراد بالساعة هنا (معناه اللغوي) وهو: برهة من الزمن، ولهذا قال: وأشار بيده يقللها، ليسارة وقتها، وأما تعيين الساعة نقد ورد فيه أحاديث كثيرة صحيحة واختلف العلماء فيها اختلافاً كثيراً، وأفاض الإمام ابن القيم في ذكر أقوالهم ورجح منها قولين، أحدهما: أنها من جلوس الإمام إلى انقضاء الصلاة، انظر: (زاد المعاد: ١/ ٣٨٨ ـ ٣٩٧) بتحقيق شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط)، وانظر أيضاً (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للشيخ القرضاوي: ١/ ٢٤١ ـ ٢٤٣).

الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا، اللهم أكرمنا ولا تهنا، واعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا.

اللهم انصر إخواننا المجاهدين في فلسطين، وانصر إخواننا المجاهدين في أفغانستان، وانصر إخواننا المجاهدين في اريتريا، وانصر إخواننا المجاهدين في الفلبين، وانصر إخواننا المجاهدين في كل مكان، اللهم خذ بأيديهم إلى مواطن النصر، اللهم أيدّهم بملأ من جندك، وأمدهم بروح من عندك، واحرسهم بعينك التي لا تنام، واكلأهم في كنفك الذي لا يضام، اللهم عليك باليهود الغادرين، اللهم عليك بالشيوعيين الملحدين، اللهم عليك بالصليبين المستعمرين، اللهم عليك بأعدائك أعداء الدين، اللهم ردّ عن المسلمين كيدهم، وفل حدهم، وأذهب عن أرضك- سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

عباد الله: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦]. اللهم صلّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* * *